الفصل الثالث

إعادة بناء التفكير الدينى

نماذج معاصرة

تمهيد

إن إعادة بناء التفكير الدينى فى عصرنا الحاضر أصبح ضرورة ملحة لأسباب عديدة؛ أولا: لقطع الطريق أمام ذلك النمط من الفكر الدينى التكفيرى الذى تنامى فى الفترة الماضية والذى تريب عليه وجود تنظيمات وجماعات تتزيا بزى الدين وتكفر كل من لا يدخل فيها وهذا أمر لم نعهده منذ أيام الخوارج فى عصر الإسلام الأول. ثانيا: لما يمثله هذا البناء الفكرى الدينى المجدد على أسس من الاجتهاد الملتزم بكتاب الله والسنة النبوية الشريفة من فكر معتدل ووسطى من شأنه القضاء على ذلك النمط الفكرى المتطرف الذى أصبح يهدد انتشار العقيدة الاسلامية الوسطية ويهدد المد الإسلامى الحقيقى الذى بشرنا به الرسول الكريم، كما أصبح من خلال الجماعات التكفيرية التى تعتقد فيه وتحارب من أجله شوكة فى ظهر المسلمين فى أنحاء العالم تقلق مضاجع المسلمين وتكاد تقضى على الاستقرار فى منطقة الشرق الاوسط وافريقيا، ومن ثم تعوق أى فرصة للتقدم الحقيقى فى بلدان العالم الإسلامى. ثالثا: إن من شأن تجديد التفكير الدينى ازكاء روح الاجتهاد المبنى على أسس من صحيح الدين وكذلك من شأنه تجديد الخطاب الدينى واشاعة الروح الايجابية

بين المؤمنين بالعقيدة الاسلامية مما يعيدهم مرة أخرى إلى طريق الانجاز الحضارى. وهذا هو ما نبتغيه حقا فى هذه الحقبة التى يعانى فيها المسلمون من التأخر والجمود، إننا نتمنى أن يسود التفكير الدينى بنمطه العقلانى القادر على الحوار مع الذات ومع الآخر بايجابية، إننا نتمنى أن يسود التفكير الدينى المتسامح الذى يغلب روح الأخوة وعدم التعصب بين أبناء العقيدة الواحدة وان اختلفت تفسيراتهم ورؤاهم الدينية والمذهبية، إننا نريد الخروج بديننا الحنيف من بؤرة الصراع والحرب بين الأشقاء إلى نور اليقين بأن الدين واحد وبأن رسوله واحد بأن التعاليم وأسس العقيدة واحدة، ومن ثم فعلينا تغليب الوحدة والاتفاق على التفرق والصراع، علينا ادراك أن عدونا ليس أبدا من آمن بالله ربا وبمحمد رسولا، إن علينا فى هذه المرحلة الحرجة التى تفرض علينا تحديات جمة أهمها أن ندرك أن أعداءنا الحقيقين نجحوا بشكل مذهل فى اذكاء عوامل الصراع بيننا وبث كل عوامل الفرقة والصراع بيننا، وحينما ندرك ذلك حقا علينا أن نتوقف فورا عن هذه الصراعات والحروب وعلى كل فصيل أو فرقة أو جماعة أو فرد أن يبدأ بنفسه ليمكن اعادة اللحمة إلى الجسد الإسلامى الواحد الذى مزقناه بأيدينا شر تمزيق، وعلينا فى ثنايا وبعده أن نبدأ باعادة التفكير الدينى إلى مساره الصحيح، ذلك المسار المعتدل الذى نجح من خلاله أجدادنا العظام أن يؤسسوا دولتهم العظمى وأن ينشروا العدل والمساواة والتقدم الحضارى والعلمى من خلالها لكل أرجاء العالم.

ولاشك أننا نستطيع ذلك إذا صفت العقيدة وأخلصت النوايا واتحدت الارادات المتفرقة على كلمة سواء.

وأعتقد أن لدينا فى العالم الإسلامى نماذج عديدة لتجديد الفكر والتفكير الدينى يمكن أن نتخذ منها قدوة لنمط التفكير الذى ننشده ونتمنى أن يسود أرجاء العالم الإسلامى، ولكم يسعدنى أن أقدم للقارئ العزيز هذين النموذجين: الإمام محمد عبده ومالك بن نبى باعتبارهما أصحاب فكر دينى عقلانى متنور يستند إلى الأصل ويواكب تطورات العصر.

(١)

حوار حول الايمان والالحاد
بين الفكر الغربى والفكر العربى[١]

نرجو حضرتكم فى مستهل هذا اللقاء ان تقدموا لنا، ولو على نحو مقتضب ما ترونه من سيرتكم العلمية، وفى السياق نود التعرّف على الباب الذى دخلتم منه إلى مشاغل الفكر والفلسفة...

بداية أود أن أشكركم على أن أكون ضيفا على هذه الدورية الفتية وأن ألتقى بقرائها فى عددها السابع، وأما عن سؤالكم عن سيرتى العلمية فأهم معالمها هو حصولى على ليسانس الفلسفة من كلية الآداب ـ جامعة القاهرة عام ١٩٧٥ بتقدير عام ممتاز. وكان موضوع البحث «فكرة الألوهية عند أفلاطون وعلاقتها بعالم المثل» ثم حصلت تحت عنوان «نظرية المعرفة وعلاقتها بنظرية العلم الآرسطية» على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من نفس الجامعة بعد ذلك بخمس سنوات، وقد عملت بعد ذلك بثلاث سنوات بجامعة الامارات العربية المتحدة

(١) أجرى هذا الحوار معى الأستاذ الدكتور عامر عبد زيد الوائلى الأستاذ بالجامعات العراقية، ونشر بالعدد السابع من دورية «الاستغراب» الفصلية، بيروت ـ مايو ٢٠١٧م.

لمدة ست سنوات،وقد عدت بعدها إلى جامعة القاهرة أستاذا مساعدا فأستاذا. وقد توليت رئاسة قسم الفلسفة بآداب القاهرة من عام ٢٠٠٢م حتى ٢٠٠٥ م.

وقد توليت الإشراف على عمادة كلية التربية بفرع جامعة القاهرة ببنى سويف فى نفس الفترة. ثم أصبحت عميدا لكلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة ٦ أكتوبر من ٢٠٠٥ حتى ٢٠٠٧م. ثم أصبحت عميدا لكلية رياض الأطفال ـ جامعة القاهرة من ٢٠٠٧ حتى ٢٠١١م. ثم عدت إلى رئاسة قسم الفلسفة مرة أخرى بعد ذلك لمدة عامين.

وقد حصلت على عدد من الدورات المحلية والدولية فى مجال الجودة والاعتماد وتطوير التعليم الجامعى أهمها من جامعة ابالیشيا بولاية نورث كارولينا بالولايات المتحدة الأمريكية ٢٠٠٨م. كما حصلت على عدة دورات محلية ودولية فى القيادة والحوكمة.

وقد شاركت فى عشرات اللجان العلمية الخاصة بتطوير التعليم الجامعى وقبل الجامعى فى مصر والعالم العربى. كما شاركت فى أكثر من تسعين مؤتمرًا دوليًا وإقليميا ومحليًا باحثًا فى معظمها ورئيسًا أو مقررا لبعضها. وأشارك الآن فى عضوية عشرات اللجان والهيئات المحلية والإقليمية؛ منها:

عضو اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين «تخصص الفلسفة» بالمجلس الأعلى للجامعات بمصر. وأنا الآن مقرر هذه اللجنة.

عضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة وعضو مؤسس الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية وعضو مجلس إدارة الجمعية الفلسفية المصرية وعضو الجمعية الفلسفية العربية وعضو اتحاد الكتاب

المصريين وكذلك عضو اتحاد الكتاب والأدباء العرب وعضو الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العلمية.

وقد أشرفت على حوالى أربعين رسالة ماجستير ودكتوراه فى جامعة القاهرة وبعض الجامعات المصرية الأخرى وأكاديمية ناصر العسكرية.

وقد حصلت على عدة جوائز مصرية ودولية للتفوق العلمى، أهمها:

جائزة جامعة القاهرة التقديرية فى العلوم الإنسانية والتربوية ٢٠١٤م.

جائزة اندريه لالاند والشيخ مصطفى عبد الرازق للتفوق الدراسى فى ليسانس الفلسفة.

جائزة ارستفرون وحرمه للتفوق العلمى فى مجال الفلسفة اليونانية.

جائزة زكى نجيب محمود للتفوق العلمى فى مجال المنطق وفلسفة العلوم.

جائزة الـ International -biographical –England - center والانضمام إلى موسوعة: ٢٠٠٠ outstanding Intellectuals of the 21st Century- Cambridge CB23QPEngland-FirstEdition2002. وقد صدرت الموسوعة متضمنة ملخصًا للسيرة الذاتية والعلمية p. ٩٤ .

جائزة أفضل كتاب بمعرض القاهرة الدولى للكتاب (من مؤسسة الأهرام) عن كتاب «ضد العولمة» ١٩٩٩م وعن كتاب «ثقافة التقدم وتحديث مصر» ٢٠٠٦م.

ولى أكثر من سبعين بحثًا منشورًا فى المجلات العلمية المختلفة محليًا

وإقليميًا باللغتين العربية والإنجليزية. أما الكتب فقد صدر لى أكثر من ستين كتابًا منشورًا فى الكثير من دور النشر المصرية والعربية.

أما عن دافعى للتخصص فى الفلسفة، فالأمر يعود إلى سن الطفولة حيث كنت أهوى القراءة لدرجة أننى كنت أنهى قراءة الكتب فى مكتبة المدرسة فى المراحل الدراسية المختلفة وكثيرا ما كنت ألخص هذه الكتب واستخرج منها الأقوال التى تعجبنى وأحيانا كنت أعرض لها عرضا نقديا وأذكر أننى حصلت على أول جائزة فى حياتى من خلال مسابقة للقراءة نظمتها الإدارة التعليمية وعمرى ثلاثة عشر عاما وكانت عن عرض نقدى لكتاب ألفه د. اسماعيل صبرى عبد الله عن الصراع العربى الاسرائيلى، وأتعجب الآن من أننى كنت فى هذه السن الصغيرة أهوى التأليف ليس فقط من خلال كتابة القصص والأشعار العامية والفصحى بل أيضا الكتب حيث ألفت كتابا بعنوان «أبطال خالدون» عن أبطال مصر والعرب كأحمد عرابى ومصطفى كامل وأحمد عبد العزيز وسليمان الحلبى وغيرهم. وقد اكتشفت فى تلك الآثناء أن معظم من أقرأ لهم كانوا من خريجى قسم الفلسفة كنجيب محفوظ وأنيس منصور وزكى نجيب محمود أو كانوا ممن يعشقونها مثل العقاد وطه حسين ويوسف ادريس ومصطفى محمود ويحى حقى ومحمود تيمور وجورجى زيدان ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين وغيرهم وغيرهم. وحينما دخلت الجامعة قاصدا كلية الآداب بالذات كان من الطبيعى أن أختار دراسة الفلسفة أو الصحافة لكن لم تدم حيرتى طويلا حيث تصادف أن تحول قسم الصحافة إلى معهد مستقل للاعلام فكان الخيار الوحيد هو الفلسفة. وقد مكننى هذا التخصص من مواصلة تنمية موهبتى فى الكتابة وممارسة

الأنشطة الثقافية والسياسية حيث رشحت نفسى لعضوية اتحاد الطلاب فى لجنة النشاط السياسى والثقافى وبدأت أصدر مجلة حائط دورية نصف شهرية بعنوان «منوعات أدبية» ثم أسست أول جريدة فصلية مطبوعة للكلية بعنوان «آداب» طوال سنوات الدراسة ثم واصلت الاشراف على إصدارها مع الطلاب بعد أن عينت معيدا بالكلية وظل الحال هكذا فى ظل إشرافى على اللجنة الثقافية ثم ريادتى لاتحاد طلاب الكلية بعد الحصول على الأستاذية وحتى عينت عميدا لكلية التربية ورئيسا لقسم الفلسفة.

قرأنا لكم الكثير مما أنجزتموه من دراسات حول الفكر الغربى على المستويين الإبستمولوجى والنقدى.. ما الذى توصلتم إليه من آراء وقناعات وأنتم تعاينون المشهد المعرفى فى الغرب على مدى سنين طويلة من الدرس والاختبار؟

الحقيقة أن الفكر الغربى قد تميز منذ فجر تاريخه فى العصر اليونانى وحتى الآن بالتنظير العقلى لقضايا ومشكلات الطبيعة والوجود والإنسان مستفيدا من النتاج الفكرى لحضارات الشرق قديما ووسيطا. ومع ذلك فقد ندر أن اعترف فلاسفة الغرب بفضل الشرق عليهم باستثناءات نادرة أبرزها أفلاطون قديما الذى اعترف بفضل مصر عليه فى محاورات عديدة أبرزها فايدروس وطيماوس والقوانين وروجيه جارودى حديثا فى كتابه حوار الحضارات. كما تميز الفكر الغربى طوال تاريخه بالنزعة التحليلية النقدية وعبر ذلك كان تطوره المتسارع وخاصة منذ عصر التنوير حتى الآن ولما كان الإنسان الغربى بطبيعته يتلقى الفكر بشكل ايجابى فهو يتفاعل مع الأفكار الجديدة ويطور من حياته

وحضارته على أساسها؛ فمن الهيجلية وتأثرا بها سلبا أو ايجابا ظهرت الفلسفات التحليلية والبراجماتية والظاهراتية وغيرها، والفلسفات الحداثية ترتب عليها ما بعد الحداثية، والفلسفة الليبرالية الرأسمالية ترتب عليها الفلسفات الاشتراكية والماركسية وهكذا..

ولاشك لدى أن الفكر الغربى فكر تحيزى عنصرى رغم زعم فلاسفته أهمية الحوار وأهمية الرأى والرأى الآخر والدعوة إلى حوار الحضارات؛ فالأغلبية الكاسحة من فلاسفته ومؤرخيه لايرون فى العالم غير الفكر الغربى والعلم الغربى ويتصورون أنفسهم هم أصل الفلسفة وأصل العلم والحقيقة كما كشفنا عنها فى دراسات عديدة أن أصل الفلسفة هو الشرق القديم وأن لفظة Sophia أصلها مصرى قديم، كما أن العلم ميراث الإنسانية كلها منذ حضارات الشرق القديم أيضا وحتى الآن. أما مسألة حوار الحضارات والثقافات التى يدعون إليها فهى لا تعدو أن تكون ذرا للرماد فى العيون؛ إذ أن أى دعوة للحوار ينبغى أن تكون على أساس أن الطرفين متكافئين وأن تستهدف الحرص على الخروج بنتائج مفيدة لهما لكن الواقع أن الطرف الغربى دائما مايدير الحوار مستهدفا مصلحته هو دون النظر إلى مصلحة الطرف الآخر فتكون النتيجة أن الحوار هو فى الأساس بالنسبة للآخر (غير الغربى) هو حوار اذعان وخضوع واستسلام!! إن الفكر السياسى الغربى منذ هيراقليطس يقوم على الاقرار بقانون القوة؛ فقد قال الأخير أن الحرب أب للجميع وملك على الجميع فهى تجعل من البعض أحرارا والآخرين عبيدا كما قال السوفسطائيون أن العدالة تسير مع القوة وجودا وعدما ولم يذهب أفلاطون بعيدا حينما قال أن السياسة هى علم القوة ومعرفة

كيفية توظيفها فى المجتمعات، وهكذا الأمر لدى معظم فلاسفة السياسة الغربيين حتى البراجماتية الأمريكية المعاصرة. وليس بعيدا عن كل ذلك التأكيد على أن الدعوة الغربية إلى مفاهيم مثل الحرية وحقوق الإنسان لم يقصد بها فى واقع الحال إلا الإنسان الغربى!! ففى الوقت الذى شهدت أوربا عصر التنوير والليبرالية الديموقراطية والدعوة إلى الحريات السياسية والاقتصادية كانت أوربا تبدأ عصر استعمار الدول الافريقية والآسيوية وتستنفذ مواردها وتستعبد أهلها وقامت أمريكا على ابادة أهل البلاد الأصليين من الهنود الحمر وجلب مئات الآلاف من الافارقة كعبيد عند السيد الأبيض!! وما الدعوة إلى العولمة بأشكالها المختلفة اليوم إلا دعوة إلى غربنة العالم وأمركته سياسيا واقتصاديا وثقافيا بحيث نعيش كما قلت فى كتابى «ضد العولمة» عصر فكر السادة وثقافة التابعين!!

قد تكون ظاهرة الإلحاد من أبرز الظواهر التى يشهدها العالم اليوم، كيف عاينتم هذه الظاهرة فى ضوء ما صدر لكم من دراسات كثيرة ومعمّقة فى هذا المجال؟

لاشك أن الالحاد أصبح أحد الظواهر التى ينبغى التوقف عندها فى عصرنا الحالى وخاصة أنها تنتشر بمعدل أكبر بين الشباب رغم أن أحدث الدراسات التى لدينا تشير إلى أن معدل الالحاد يقل بنسبة ضئيلة فلقد أشار استطلاع عالمى أجرته مؤسسة غالوب الدولية عام ٢٠١٥م شارك فيه أكثر من ٦٤ ألف مشارك كشف عن ١١ ٪ ممن شملهم الاستطلاع أجابوا: «ملحد بقناعة» فى حين كانت نتيجة استطلاع سابق حول نفس الموضوع أجرى عام ٢٠١٢م ١٣٪ من أفراد العينة. وقد أجرت هيئة الاذاعة البريطانية عام ٢٠٠٤ م مسحا حول نسبة الالحاد فى العالم

وكانت النتيجة أن نسبتهم فى العالم حوالى ٨٪ من عدد سكان العالم. والمعروف أن أعلى نسب الالحاد موجودة فى القارة الأوربية وفى شرق آسيا، وبينما توجد فى فرنسا وإنجلترا والسويد والنرويج أعلى نسبة من الملحدين فى أوربا، فإن النسب فى الدول الآسيوية بلغت ٦١٪ من سكان الصين ٤٧٪ من سكان كوريا الجنوبية.

كيف تفسر تعدد التعريفات المفهومية والاصطلاحية للإلحاد، وما المعايير التى على أساسها يجرى الحكم به، سواء على الأشخاص أو على الظواهر الاجتماعية؟

الحقيقة أنه قد يوجد هناك اختلاف أو تعدد فى وجهات نظر البعض حول تعريف الالحاد تبعا لاختلاف الثقافات وجهات النظر، لكن ثمة اتفاق بين الجميع على أن الالحاد بالمعنى الواسع يعنى رفض الاعتقاد بوجود الآلهة أو عدم الايمان بوجود الله، ويتناقض هذا الفكر الالحادى مع فكرة الإيمان بالالوهية والاعتقاد فى وجود إله خالق ومدبر لهذا العالم. وبالطبع فإن المعايير التى يحكم من خلالها الناس على الملحدين تختلف بين المجتمعات حيث إن المجتمعات المؤمنة بالديانات السماوية ترى أن كل من لا يؤمن بالله الواحد ملحدا أو كافرا بينما تخف حدة ذلك لدى المجتمعات المؤمنة بديانات غير سماوية؛ إذ ليس هناك تناقض أو عناد مثلا بين الالحاد والدين البوذى فبعض البوذيين يعتنقون البوذية ولكنهم لا يعتقدون فى وجود الله!

وعموما ينبغى التمييز بين إلحاد قوى أو موجب وبين إلحاد سلبى ضعيف؛ حيث إن الملحد من الطراز الأول ينفى وجود الإله ويقدم على ذلك أدلة وبراهين عقلية مستفيدا من نظريات علمية وفلسفية تدعم

وجهة نظره، فالملحد القوى هو ذلك الشخص الذى يعتبر أن فكرة الإله فكرة غير منطقية وغير موضوعية وهو مع ذلك ليس فى عداء مع الدين أو مع المتدينين بل هو عادة ما يحترم كل صاحب دين، بينما الملحد من الطراز الثانى يكتفى بالاعتقاد بعدم وجود إله دون أن يقدم ما يؤكد وجهة نظره، فقط هو يبدو غير مقتنع بما يقدمه المؤمنون من أدلة وبراهين على وجود الله، وفرق بين هذا وذاك من الملحدين وبين رجل الشارع البسيط الذى قد يكون انكاره لوجود إله راجعا لأسباب شخصية أو اجتماعية أو نفسية ربما لا يستطيع اكتشافها أو التعبير عنها.

ربطًا مع السؤال السالف الذكر، كيف تعرِّفون (الإلحـاد) تبعًا للمنهجين الدينى والوضعى العلمانى؟

فى اعتقادى أن مدخلنا لتعريف الإلحاد ينبغى أن يكون لغويا فالإلحاد فى اللغة العربية يعنى الميل عن القصد كما يقول معجم لسان العرب وأصل الإلحاد الميل والعدول عن الشىء وعادة مانترجم نحن كلمة atheism بـ«اللاربوبية» أى أن اللاربوبى هو الملحد وهو الذى لايؤمن بوجود إله أو الذى لايعتقد فى وجود الآلهة على وجه العموم وهو فى ذات الوقت الذى لايعنيه البحث عن صانع أو خالق لهذا العالم وهو من منظورنا اللغوى والدينى معا هو شخص يحيد عن جادة الصواب لأنه من من وجهة نظرنا الدينية والعقلانية لابد لكل مصنوع صانع ولكل مخلوق خالق ولا يمكن لأى شىء أن يصنع نفسه أو يوجد ذاته بذاته وكل ما يوجد فى هذا العالم يؤكد هذه الحقيقة ولذلك فإن كل سائل لابد أن يسأل: وماذا وراء هذه المخلوقات أو المصنوعات كلها؟ أليس لسلسلة المخلوقات من نهاية تقف عند حدها التساؤلات المفضية إلى

علل المخلوقات الجزئية لنسأل عن علة العلل بالتعبير الآرسطى؟ إن هذا التدرج فى التساؤل بغرض الاستدلال المفضى إلى وجود الصانع الكلى أو بتعبيرنا الدينى الخالق لكل ماهو مخلوق هو ما نعتبره عقليا ودينيا مسألة طبيعية تخرجنا من حيز هذا الكون المحدود إلى ما ورائه. بينما أصحاب المنهج الوضعى العلمانى لاينظرون إلى ما وراء هذا العالم أصلا ويعتبرون أن ذلك مضيعة للوقت والجهد لأنه بعيد عن التصديق بأدوات المنهج الاستقرائى التجريبى. إن النظر فيما وراء هذا العالم المحسوس بالنسبة لهم هو حيد عن جادة الصواب!!

فى ضوء قراءتك للمشهد الغربى، كيف تميِّزون بين معنى الملحد ومعنى الكافر، إذ غالبًا ما يلتبس على الكثيرين الفهم بسبب من غياب التمييز بينهما؟

أعتقد أن مصطلح الكافر له أبعاد دينية أكثر من مصطلح الملحد؛ فالملحد هو اللادينى على وجه العموم بينما بينما مصطلح الكافر مقياسه الايمان بدين ما؛ حيث إن أى مؤمن بدين ما أو بإله معين هو كافر بما عداه، واذا نظرنا إلى التعريف اللغوى لوجدنا أن «كفر» ـ فى الكثير من المعاجم ـ تعنى «غطى» فنقول كفر الشىء أى غطاه، كفر الليل بظلامه أى غطى نور النهار وحجبه ومن ثم يقال ليل كافر، وكفر الفلاح الحب أى غطاه، كما أن الكفر يستخدم بمعنى الجحود بالنعمة وعدم شكرها. وهذا المعنى اللغوى يتفق مع حكم الإسلام بالكفر على أهل الكتاب من الأحبار والرهبان الذين كانوا يعلمون بأن نبيا سيأتى بعد سيدنا عيسى ولكنهم كفروا أو غطوا هذه الحقيقة وحجبوها. ومن منظور دينى اسلامى ينبغى التمييز بين الكفر عموما والكفر ردة؛ فالكفر عموما هو

انكار شخص ما أو مجموعة من الأشخاص الدين الإسلامى جحودا رغم أن الصورة الصحيحة للاسلام وصلتهم «إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم»، أما الكفر ردة فهو انكار المسلم ذاته أحد أركان الإسلام الرئيسية. أما بالنسبة للفكر الغربى المسيحى فقد تكون لفظة الهرطقة هى المقابل عند المسيحيين للكفر حيث انتشر فى اوربا منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر الهراطقة وكثرت حالات الكفر والالحاد وذلك فى إطار ظهور العلوم والمعارف الجديدة فى عصر النهضة وكذلك فى إطار ظهور حركة الإصلاح الدينى وكثرة الاختلافات بين الفرق المسيحية. والحقيقة التى يشير إليها د. رمسيس عوض فى كتابه «الالحاد فى الغرب» أن تقويض الفكر الكنسى المدرسى لم يكن قاصرا على التأليهيين والفلاسفة المتشككين وحدهم، فقد أسهم البروتستانت وعلى رأسهم مارتن لوثر بنصيب وافر فى ذلك.

يرى عدد من المراقبين والدارسين للشأن الغربى أن ظاهرة الإلحاد مرتبطة بتطور العلوم عمومًا، وبخاصة بالثورة المعلوماتية التى يشهدها مستهل القرن الحادى والعشرين. ما تعليقكم على هذه الرؤية، وماذا عن صحة القول ان العالم الغربى يعيش حقبة نسيان الإيمان الدينى؟

صحيح أن تنامى ظاهرة الالحاد فى الغرب ارتبطت منذ نهايات القرن السابع عشر بالتطور العلمى الذى شهده الغرب وخاصة أن ارتباط الايمان الدينى بالكنيسة وارتباط هيمنة الكنيسة وتسلطها بالوقوف عائقا أمام التقدم فى البحث العلمى والتفكير الفلسفى الحر، قد ساهم فى انتشار موجة الالحاد المصاحب أيضا لظهور العلمانية والفصل بين

الدين والعلم وبين الدين والسياسة؛ لقد انبهر الغربيون بالتقدم الذى أحرزه العلم فى تغيير حياتهم إلى الأفضل فى الوقت الذى بدأ يقل فيه احترامهم للكنيسة والدين شيئا فشيئا. ولقد بدأت ظاهرة الالحاد والبعد عن الدين وعدم الاهتمام بتعاليم الدين وممارسة الشعائر الدينية تزداد مع ظهور نظرية التطور الداروينية من جهة والفلسفات الالحادية التى تهاجم الدين من ناحية أخرى؛ فقد هوجمت الكتب المقدسة لليهودية والمسيحية هجوما شديدا وتشكك فيها فلاسفة عصر التنوير فى القرن الثامن عشر، واعتبر شوبنهور أن الدين من صنع البشر كما اعتبر ماركس أن الدين أفيون الشعوب وأعلن نيتشه موت الإله ونظر إليه فرويد على أنه وهم كانت البشرية بحاجة اليه فى بداياتها ولم تعد بحاجة اليه الآن. وقد ظهرت الفلسفات الوضعية التجريبية لتهاجم كل المعتقدات البشرية الخاصة بالماوراء ومن ثم اعتبر أنصارها أننا نعيش عصر العلم وأنه لا ضرورة لهذه المعتقدات الدينية الميتافيزيقية، وجاءت الفلسفات العلمية الأخرى كالماركسية والبراجماتية والتحليلية والظاهراتية ومعهم الفلسفة الوجودية لتأخذ الإنسان المعاصر إلى أفاق معرفية وحياتية أخرى كلها مستقاة من العلم وكيفية تحقيق التقدم البشرى بعيدا عن أى معتقدات دينية ماورائية. وكل ذلك أدى إلى ما أشرتم إليه حيث أصبح الدين فى هامش شعور الإنسان الغربى لدرجة أنه يكاد ينسى الإيمان الدينى وممارسة الشعائر الدينية. وبالطبع يزداد الأمر سوءا فى إطار عصر المعلومات حيث شغل حتى المؤمنين من الناس من الشباب والأطفال والشيوخ على حد سواء بمتابعة الحياة على وسائل الاتصال الاجتماعى غافلين عن ممارسة شعائرهم الدينية ومن ثم انصرفوا عن الله وحياة العبادة والايمان وألهتهم حياة الترف واللذة التى انغمسوا فيها بفضل

التقدم التكنولوجى الذى جعل الدنيا والاستمتاع بأطايبها المادية هى أكبر همهم بعدما أصبحت هى مبلغ علمهم..

بحكم التناظر الشديد بين الغرب والـشرق فى عصر «العالمية الممتدة» هل ترون من أثر للظاهرة الإلحادية الغربية فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية؟

بالطبع تأثرت المجتمعات العربية والإسلامية بكل هذه المظاهر الغربية بفعل أننا أصبحنا نعيش عصر العولمة الذى هو فى واقع الحال عصر «غربنة» العالم أو «أمركته» ان جاز التعبير الذى استخدمته من قبل فى كتابى «ضد العولمة» و«مابعد العولمة»، وهذا أمر طبيعى عبر عنه ابن خلدون بقوله إن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب. ولاشك أن ثمة انتشار لظاهرة الالحاد وخاصة بين الشباب المعولم المبهور بعلمانية الغرب وبتقدمه التقنى وسيادته الحضارية. ومع ذلك ينبغى ألا نعفى مؤسساتنا الدينية والفكرية من المسئولية عن ذلك حيث انتشر التطرف والتعصب بين الشباب العربى والمسلم سواء من ناحية التعصب الدينى الأعمى الذى بدا فى ظهور الجماعات الاسلامية المتطرفة ومانتج عنها من تنظيمات تكفيرية تتصرف بهمجية ووحشية حتى مع المسلمين المؤمنين بنفس العقيدة والموحدين بالله والمؤمنين برسوله، أو من ناحية هؤلاء الذين انخرطوا فى جماعات إلحادية مبتعدين عن الدين والمتدينين ساخرين من حياتهم والتزامهم الدينى معتبرين أن هذا الالتزام بالدين وممارسة الشعائر الدينية هو سبب التخلف، وما ذلك إلا نتيجة تقصير واضح فى توصيل رسالة الإسلام الصحيح المعتدل إلى هذا الجيل الذى ظلم من غياب القدوة الدينية المعتدلة فى البيت والمدارس والجامعات!!

لكن هل بالإمكان رسم ملامح عامة لكل من: تاريخ الإلوهية، وتاريخ الإلحاد فى الغرب اليوم؟

فى اعتقادى أن تاريخ الفكر الغربى مزيج من البديلين؛ فكما أن البحث فى الألوهية والايمان بصور متعددة بالدين والألوهية كان موجودا منذ نشأة الفلسفة عند اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد وحتى الآن، كذلك كانت هناك التيارات والفلسفات المادية الالحادية. ولم يختلف الأمر كثيرا حتى فى ظل انتشار المسيحية فى الغرب، فرغم الهجوم الشديد الذى شنه المؤمنون والمدافعون المتحمسون للمسيحية على الملحدين إلا أن هذا لم يكن يعنى بالضرورة انتشار الالحاد، فمثل هذا الهجوم كان يرجع إلى شطط المتدينين وغلوائهم أكثر مما كان يدل فى كثير من الأحيان على انتشار ظاهرة الالحاد لأنه يحلو دائما للعقل الدينى المتطرف أن يخلق أعداء من وحى الخيال؛ ففى العصر اليونانى الهللينستى انتشرت التيارات الشكية مثل البيرونية (نسبة إلى بيرون) والأكاديمية (نسبة إلى أكاديمية أفلاطون التى تحولت فى هذا العصر إلى مدرسة شكية) كما ظهرت الفلسفة الأبيقورية التى تزعمها أبيقور الذى عرف عنه انكاره القاطع لوجود الله وأكد أن كل مافى الوجود عبارة عن ذرات مادية، لقد رفض العديد من الأقدمين الإيمان بأن الله خالق العالم وذهبوا إلى أن العالم أزلى لايطرأ عليه أدنى فساد أو تغيير، وقد عاد المذهب الذرى للظهور فى ايطاليا أوائل القرن الخامس عشر ' ورغم أنه لم يكن يتعارض بالضرورة مع المسيحية إلا أنه أصاب رجال الكنيسة بالفزع، لقد أدان البابا عام ١٥١٣م مثل هذه الأفكار وفى نفس الوقت وجدت من يدافع عنها. لقد نشأت جماعة الأكاديمية المتنكرة ورفعت شعار الإله المجهول وشاعت

تهمة إنكار وجود الله إلى حد كبير فى البندقية. وبمجئ القرنين السادس عشر والسابع عشر تزايد انزعاج السلطات بسبب كثرة حالات الكفر والالحاد مما جعلها تشن حملة شعواء على الالحاد بالتنسيق مع الكرسى البابوى فى روما وظل الأمر على هذا الحال حتى عشرينيات القرن الثامن عشر.

تبعًا لما ذكرتم حول الغزو المعرفى الذى تمارسه منظومات التفكير فى الغرب، يطرح السؤال بإلحاح عما إذا كان بالإمكان صياغة الاستراتيجيات الممكنة لمكافحة هذه الظاهرة فى مجتمعاتنا... إلى أى مدى يمكن لمثل هذه الإستراتيجيات ان تجد طريقها إلى الظهور فى بيئاتنا الثقافية والاجتماعية وكيف؟

إن مكافحة هذه الظاهرة فى مجتمعاتنا العربية والاسلامية يستلزم بداية توفير المناخ اللازم لحرية الفكر؛ فتقييد الحريات يولد التطرف والتعصب ضد ماهو سائد من قيم ويضع الشباب دائما فى خانة العند والذهاب إلى شد أقصى طرف الخيط فى المعاندة لكل ماهو مألوف أو متفق عليه، كما يستلزم ثانيا تمكين الخطاب الدينى المعتدل من الوصول إلى أبنائنا فى المدارس والجامعات والتجمعات الشبابية عموما بأساليب مبتكرة وغير تقليدية. وقبل كل ذلك وبعده تسليحهم بأساليب التفكير الفلسفى والعلمى بحيث يتعودوا على تحليل كل ما يملى عليهم من أفكار تحليلا عقليا نقديا؛ فمواجهة الفكر الالحادى أو الفكر المتطرف عموما لا يكون إلا بالفكر العقلانى المقنع، ولنا من فلاسفتنا وفقهائنا فى التراث العربى الإسلامى أسوة حسنه حيث استخدموا المناهج العقلية والعلمية فى الرد على المشككين ولم يتوقفوا عن الدعوة إلى الايمان عبر

«وجادلهم بالتى هى أحسن» فكانوا يكتسبون للاسلام أنصارا جددا ومؤمنين موحدين كل يوم.

١١ ـ مثلما هناك من يروج للإلحاد، بالتأكيد هناك من يقدم نقدًا للإلحاد بأشكاله وأنماطه كافة، ما هى أبرز الأسماء التى تصدت تاريخيًا لموجات الإلحاد فى العالم العربى؟

الحقيقة أن تاريخنا القديم والحديث يشهد بأنه لم تتوقف يوما موجات الصراع بين الفكر الالحادى والفكر الدينى، ومن ثم فكل فكر تشكيكى الحادى واجهه بقوة الفكر الدينى المستنير ـ بعيدا عن التعصب والتكفير ـ وعادة ما يعقب مرحلة الشطط وانتشار موجات الفكر الالحادى سيادة الفكر الدينى وعمق الايمان وكم كتب الكاتبون حول ذلك ويحضرنى الآن مثلا كتاب أستاذنا د. توفيق الطويل «قصة الصراع بين الدين والفلسفة» وكتاب عباس محمود العقاد «الله» وكذلك كتابات د. مصطفى محمود وان كانت هذه كتابات معاصرة بعض الشىء فقد كانت كتابات جمال الدين الافغانى ومحمد عبده خير مثال للرد على المشككين والملحدين وكان لها أثرها فى كل أنحاء العالم وليس فقط العالمين العربى والاسلامى.

١٢ ـ هناك فى أوروبا اليوم جدل عميق حول فكرة (ما بعد العلمانية)، وقد اشتغل على هذه الفكرة عدد من المفكرين كالفيلسوف الألمانى يورغن هابرماس على وجه الخصوص، هل يمكن النظر إلى هذه الفكرة كتعبير عن انحسار وتراجع الظاهرة الإلحادية؟

ربما يكون فى الفكر الغربى المابعد حداثى عموما توجها نحو اعادة الاعتبار لدور الدين فى اعادة التوازن للانسان الغربى واكسابه نوعا من

الطمأنينة النفسية والاجتماعية لسد النقص الذى ترتب على تركيز الفكر الحداثى بماديته الشديدة وعلمانيته المتطرفة على اشباع غرائز الإنسان الحسية اللذية بعيدا عن الالتزام بأى مبادئ أخلاقية أو معتقدات دينية.

١٣ ـ هناك من يرجع ظاهرة الإلحاد فى المشهد الثقافى الغربى؛ إلى تأثير الخطاب الليبرالى وثقافة العلمنة الحادة كيف ترون إلى واقع الحال؟

من المعروف أن الليبرالية فى الغرب قد ظهرت على يد الطبقة المتوسطة البروتستانتية فى إنجلتر وهولندا وكانت أرسخ قدما فى هولندا ثم امتدت إلى جميع أرجاء القارة الأوربية وأنها كانت من أسباب اندلاع الثورة الفرنسية إلى جانب الأفكار التنويرية التحررية الثورية التى أطلقها جون لوك (١٦٣٢- ١٧٠٤م) فى انجلترا ونقلها ودافع عنها فولتير وأقرانه فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. وبالطبع فإن ذلك لايعنى أن البروتستانتية قد احتفظت بروح التسامح على طول الخط لكن مع ذلك ظل الاتجاه العام فى أوربا والغرب متسما بسيادة التيار الليبرالى على الصعيد السياسى وسيادة الرأسمالية على الصعيد الاقتصادى حتى بدايات القرن العشرين التى شهدت بدايات ظهور تيارات وحركات فاشية وشيوعية ونازية اعتبرت الديموقراطية والحرية الفردية ألد أعدائها. على كل حال فباستثناء الدول التى تحولت إلى النظم الشيوعية الشمولية ظلت أوربا الغربية تنتهج التسامح الدينى مع الجميع؛ وعلى سبيل المثال فقد شجع الغاء المحاكم الكنسية التابعة لسلطة الكنيسة قبيل منتصف القرن السابع عشر على انتشار الملل والنحل والجماعات المتطرفة التى بدأت تخرج على الأعراف الدينية وتدعو إلى الانفصال عن الكنيسة ؛ فقد ظهرت فى انجلترا مثلا جماعة مسيحية اتسمت بالانحلال

الخلقى ولقبت بـ«الهادمين» واتسمت بشدة التعصب لأفكارها التى هددت المسيحية فى وجودها مما اضطر الحكومة الإنجليزية بقيادة كروميل إلى الانقضاض عليها واجهاضها قبل أن يستفحل أمرها. إن القرن الثامن عشر فى أوربا عرف بأنه عصر العقل أو عصر التنوير هو الذى شهد تثبيت أركان العلمانية فى الغرب وكثرت فيه الكتابات الفلسفية والروائية والمسرحية المدافعة عن الحريات وعلى رأسها حرية الاعتقاد وحرية نقد الكتب المقدسة، وكان لهذا الكتابات التى حملت هذه الأفكار الجديدة أثرها الكبير فى تحرر الكثيرين من الأفكار الدينية التقليدية وأخذوا يتجرأون على مناقشة القضايا المستحدثة التى لم تكن موجودة من قبل، وتجلى ذلك مثلا فى ذلك الجدل والصراع الذى دار بين طبقة التجار ورجال الأعمال الرأسماليين من ناحية وبين رجال الكنيسة الكاثوليكية من جهة أخرى حول شرعية القروض والربا وأهميتها فى انجاح المشروعات العمرانية والانتاجية،. إن ذلك الجدال لم يكن يعنى بالضرورة أن هذه الطبقة الجديدة من رجال الأعمال نبذت الايمان بالدين ولكنهم كانوا يحاولون فهم الدين بما يتناسب مع تحقيق مصالحهم. على كل حال فلايزال مثل هذا الجدل والصراع بين مايراه رجال الدين من جهة وبين أصحاب المصالح والأهواء من جهة أخرى موجودا وان اتخذ صورا جديدة حسب مقتضيات العصر ومستحدثاته.